

التحرير والتنوير

والناس عام والمراد بهم الأمم الماضون والحاضرون وهذه الشهادة دنيوية وأخرية . فأما الدنيوية فهي حكم هاته الأمة على الأمم الماضين والحاضرين بتبرير المؤمنين منهم بالرسول المبعوثين في كل زمان وبتضليل الكافرين منهم برسولهم والمكابرين في العكوف على مللهم بعد مجيء ناسخها وظهور الحق وهذا حكم تأريخي ديني عظيم إذا نشأت عليه الأمة نشأت على تعود عرض الحوادث كلها على معيار النقد المصيب . والشهادة الأخروية هي ما رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ : "يُجاء بنوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم يا رب فتسأل أمته هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من نذير فيقول الله ﷻ من شهودك فيقول محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال عدلا لتكونوا شهداء على الناس ويكونوا الرسول عليكم شهيدا اهـ . فقوله ثم قرأ يدل على أن هذه الشهادة من جملة معنى الآية لا أنها عين معنى الآية والظاهر من التعليل هو الشهادة الأولى لأنها المتفرعة عن جعلنا أمة وسطا وأما مجيء شهادة الآخرة على طبقها فذلك لما عرفناه من أن أحوال الآخرة تكون على وفق أحوال الدنيا قال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

ومن مكملات معنى الشهادة على الناس في الدنيا وجوب دعوتنا للأمم للإسلام ليقوم ذلك مقام دعوة الرسول إياهم حتى تتم الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين .

والشهادة على الأمم تكون لهم وعليهم ولكنه اكتفى في الآية بتعديتها بعلی إشارة إلى أن معظم شهادة هذه الأمة وأهمها شهادتهم على المعرضين لأن المؤمنين قد شهد لهم إيمانهم فالاكتفاء بعلی تحذير للأمم من أن يكونوا بحيث يشهد عليهم وتنويه بالمسلمين بحالة سلامتهم من وصمة أن يكونوا ممن يشهد عليهم وبحالة تشريفهم بها ته المنقبة وهي إثقاف المخالفين لهم بموجب شهادتهم .

وقوله (ويكون الرسول عليكم شهيدا) معطوف على العلة وليس علة ثانية لأنه ليس مقصودا بالذات بل هو تكميل للشهادة الأولى لأن جعلنا وسطا يناسبه عدم الاحتياج إلى الشهادة لنا وانتفاء الشهادة علينا فأما الدنيوية فشهادة الرسول علينا فيها هي شهادته بذاته على معاصريه وشهادة شرعه على الذين أتوا بعده إما بوفائهم ما أوجبه عليهم شرعه وإما بعكس ذلك وأما الأخروية فهي ما روي في الحديث المتقدم من شهادة الرسول بصدق الأمة فيما شهدت به وما روي في الحديث الآخر في الموطأ والصحاح " فليذاذن أقوام عن حوضي فأقول يا رب

أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم بدلوا وغيروا فأقول سحقا لمن بدل بعدي
" . وتعدية شهادة الرسول على الأمة بحرف على مشاكلة لقوله قبله لتكونوا شهداء على الناس
وإلا فإنها شهادة للأمة وقيل بل لتضمنين شهيدا معنى رقيبا ومهيمننا في الموضوعين كما في
الكشاف .

وقد دلت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضى
إلا بعد حصولها ويؤخذ من الآية أن الشاهد شهيد بما حصل له من العلم وإن لم يشهده المشهود
عليه وأنه يشهد على العلم بالسمع والأدلة القاطعة وإن لم ير بعينه أو يسمع بأذنيه وأن
التزكية أصل عظيم في الشهادة وأن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكى وأن المزكى
لا يحتاج التزكية وأن الأمة لا تشهد على النبي A ولهذا كان يقول في حجة الوداع " ألا هل
بلغت فيقولون نعم فيقول اللهم اشهد " فجعل ا هو الشاهد على تبليغه وهذا من أدق النكت
 . وتقديم الجار والمجرور على عامله لا أراه إلا لمجرد الاهتمام بتشريف أمر هذه الأمة حتى
أنها تشهد على الأمم والرسول وهي لا يشهد عليها إلا رسولها وقد يكون تقديمه لتكون الكلمة
التي تختتم بها الآية في محل الوقف كلمة ذات حرف مد قبل الحرف الأخير لأن المد أمكن للوقوف
وهذا من بدائع فصاحة القرآن وقيل تقديم المجرور مفيد لقصر الفاعل على المفعول وهو تكلف
ومثله غير معهود في كلامهم .